الفصل الثاني: عوامل سقوط الخلافة في الأندلس

أولا: العوامل السياسية

ثانيا: العوامل الاقتصادية

ثالثا: العوامل الاجتماعية

رابعا: العوامل العسكرية

تداعت الخلافة الأموية في الأندلس لتمهد للسقوط، نتيجة لعوامل وعلل كانت كامنة فيها، إذ كانت عميقة الجذور، ثم مابرحت تظهر تلك العلل إلى السطح تدريجياً، حتى كانت سبباً في تصدع أسس الخلافة، وكانت عاملاً بارزاً لانهيارها، إلا أن هناك بعض العوامل كوحدة الأندلس التي حققها الخليفة القوي عبد الرحمن الناصر، والانتصارات العسكرية على الممالك الإسبانية، أخرت تفاقم العلل ومنعت ظهورها لبعض الوقت، وما أن ارتكب الحاجب عبد الرحمن شنجول الخطأ عندما سلب ولاية العهد، حتى ظهر ما كان مستوراً، وظهرت للسطح كل تلك العلل، وفسحت المجال لأسباب التصدع التي استطاعت هدم صرح الدولة الذي كانت الفتنة تعيش في ثناياه[1]. وما يهمنا هنا هو تسليط الضوء على العوامل التي أدت إلى سقوط الخلافة الأموية.

أولا: العوامل السياسية:

أ- تولية الخليفة الحكم المستنصر العهد لابنه الصبي هشام

لعل من المفيد أن يسلط الضوء على الظروف والكيفية التي وصل بها الخليفة الحكم المستنصر إلى سدة الحكم، لأنها بداية لما سيأتي لاحقاً من تولية هشام المؤيد، فضلاً عن التشابه في كلتا الحالتين من حيث إعطاء ولاية العهد

(١) مقدمة الدكتور محمود علي مكي (المحقق) لكتاب: ابن حيان القرطبي: المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق: محمود علي مكي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ص ٩١ – ٩٢.

إلى الابن الذي لم يبلغ سن الرشد إذ تكررت تلك الحالة عند الخليفتين الناصر وابنه المستنصر، ثم بين المستنصر وابنه هشام المؤيد. فقد عزم الخليفة الناصر إلى أن يعهد بالخلافة إلى ابنه الحكم المستنصر، إذ عَيَّنه فعلاً ولياً للعهد وهو طفل إذ كان في الثامنة من عمره[١]، وكان يؤثره ويفضله على جميع أولاده ((كان الناصر قد وشحه [رشح] ابنه الحكم وجعله ولي عهده وآثره على جميع أولاده ودفع إليه كثيراً من التصرف في دولته، وكان أخوه عبد الله يساميه في الرتبة فغض لذلك وأغراه الحسد بالنكثة فنكث...))[٢].

لم يتورع الخليفة الناصر في سبيل ذلك عن قتل ابنه عبد الله عندما علم بتدبيره لخلع الحكم عن ولاية العهد، وقد اشترك في المؤامرة عدد من أهل قرطبة مثل الفقيه أحمد بن عبد البر[٣]، الذي كان يطمح في تولى منصب قاضي الجماعة كما دلت على ذلك مقولة الناصر: ((أما ابن عبد البر فأنا أعلم أنه الذي زين لهذا العاق ذلك ليكون قاضي الجماعة ويأبى الله ذلك))[٤]، وهنا يظهر دور الفقهاء بشكل واضح في تلك المؤامرة والمتمثل بالفقيه أحمد بن عبد البر.

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٤١.

(٢) ابن خلدون: تاريخ، ٤/ ١٧٢.

(٣) هو أحمد بن محمد بن عبد البر من أهل قرطبة من موالي بني أمية يكنى أبو عبد الملك كان بصيرا بالحديث فقيهاً نبيلاً متصرفاً في فنون العلم له كتاب مؤلّف: في الفقهاء بقرطبة وقد استعان به ابن الفرضي في تصنيف كتابه المشهور تاريخ علماء الأندلس، توفي في السجن بسبب اشتراكه مع عبد الله ابن الأمير الناصر في الخروج على الخليفة سنة ٣٣٨ه/ ٩٤٩م انظر: ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ت ١٢٠، ١/ ٥٠-٥١.

(٤) ابن الأبّار: الحُلَّة السِّراء، ١/ ٢٠٧ - ٢٠٨.

لم يكن الحكم المستنصر حين ولايته حديث العهد بشؤون الحكم، فطالما كان ينتدبه أبوه لمباشرة مختلف المهام، فكان يصطحبه معه في الكثير من غزواته ليخوض معه غمار الحروب[١]، كما كان يتركه في بعض الأحيان في القصر الخلافي لتسيير شؤون الدولة نيابة عنه أثناء غيابه[٢]. لم يكتف الناصر بتقديم ابنه الحكم المستنصر في حروبه، بل قدمه أيضاً في فترات السلم حيث كان يعهد إليه بالكثير من الأعمال الأخرى فمثلا عندما قدم رسل إمبراطور الروم إلى قرطبة سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م[٣] أراد الخليفة الناصر أن يحتفل بهم احتفالاً عظيماً، فطلب إلى ابنه الحكم أن يقوم بإعداد هذا الاحتفال لإظهار عظمة الخليفة ومكانته السامية بين رعيته وأمام الوافدين[٤]، كما عهد الناصر إلى ابنه الحكم المستنصر بالإشراف على بناء مدينة الزهراء سنة ٣٢٥هـ/ ٩٣٧م [٥]، وبذلك فإن الخليفة الناصر كان يعد ابنه الحكم المستنصر لتولي زمام الأمور من بعده، وقد ساعده على ذلك مدة حكمه الطويلة، ولو أراد الخليفة الناصر أن يوكل مثل هذه الأمور لغير ابنه لوجد الكثير تحت أمره وطاعته، إلا أنه آثر تكليف تلك المهام لابنه الحكم المستنصر ليعده إعداداً حقيقياً لقيادة الدولة.

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢/١٩٣، ٢٠٢.

(٢) المصدر نفسه، ٢/ ١٨٢، ١٨٥، ١٨٩.

(٣) المصدر نفسه، ٢/ ٢١٣.

(٤) المقري: أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، مطبعة فضالة، الرباط، ١٣٩٩ه/ ١٩٧٨م، ٢/ ٢٧٢؛ المقري: نفح الطيب، ١/ ٣٦٤.

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢/ ٢٣١.

عندما توفى الخليفة الناصر لدين الله سنة ٣٥٠هـ/ ٩٦١م أصبح زمام أمور الدولة بيد ولي عهده ابنه الحكم المستنصر وكان عمره حينها سبعاً وأربعين سنة إعتباراً من مولده حتى تنصيبه ٣٠٣ – ٣٥٠هـ/ ٩١٦ – ٩٦١م[١]، واستمر حكمه زهاء ست عشرة سنة من ٣٥٠ – ٣٦٦هـ/ ٩٦١ – ٩٧٦م، إذ توفى الخليفة الحكم المستنصر سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م عن عمر ناهز ثلاثاً وستين سنة، وبويع ولي عهده ابنه هشام الذي لقب بالمؤيد[٢]، وبذلك فإن الخليفة الحكم المستنصر على الرغم مما لديه من ايجابيات، فإنه سيطرت عليه النزعة الذاتية وحبه الشديد لولده الوحيد عندما نصبه خليفة من بعده لاسيما وأنه لا يزال صبياً متجاوزاً الأخوة والأعمام، وقد اختلفت الروايات في تحديد عمره فهناك من يصفه بأنه ناهز الحلم[٣]، ويرجح أن عمر هشام عندما تولى الخلافة كان إحدى عشرة سنة وبضعة أشهر استناداً إلى مولده سنة ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م وتوليه

(١) الحميدي: جذوة المقتبس، ص ١٩؛ الضبي: بغية الملتمس، ص٢١؛ ابن سعيد: المغرب، ت ١١٩، ١/ ١٨٦.

(٢) ابن الخطيب: أعمال الاعلام، ص ٤٣؛ المقري: نفح الطيب، ١ / ٣٩٦؛ إبراهيم بيضون: الدولة العربية، ص ٣١٠.

(٣) ابن خلدون: تاريخ، ٤/ ١٧٦ وهناك من حدد عمره بأحد عشر عاماً وثمانية أشهر. انظر: ابن عذارى: المصدر السابق، ٢/ ٢٥٣ وآخرون حددوه بعشرة أعوام وأشهر انظر: المراكشي: المعجب، ص٢١؛ ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد: رسائل ابن حزم الأندلسي، رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها، تحقيق: احسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، ٢/ ١٩٦ وآخر حدد عمره بعشرة أعوام انظر: ابن الأثير: الكامل، ٧/ ٣٦٩. ومنهم من ذكر أن عمره لم يتجاوز التسعة أعوام. انظر: المقري: المصدر السابق، ١/ ٣٩٦.

سنة ٣٦٦هـ/٩٧٦م، وهو ما ذكره ابن عذارى. لقد عد ما قام به الحكم المستنصر عيباً له كبير الأثر على الدولة والخلافة الأموية بل يعد ذلك عاملاً من عوامل سقوط الخلافة، وقد ذكر ذلك ابن بسام عن رواية ابن حيان حين قال: ((إلا أنه - تغمده الله خطاياه - مع ما وصف به من رجاحته، كان ممن استهواه حب الولد وأفرط فيه، وخالف الحزم في توريثه الملك بعده في سن الصبا، دون مشيخة الأخوة وفتيان العشيرة، ومن يكمل للامامة بلا محاباة، فرط الهوى ووهلة انتقدها الناس على الحكم وعدوها الجانية على دولته، وقد كان يعيبها على ولد العباس قبله، فأتاها هو مختارا ولا مرد لأمر الله))[١].

كان الخليفة الحكم المستنصر يؤمن بالحدثان لاسيما تلك **النبوءة**[٢] - الرجم بالغيب - التي تتحدث عن وراثة عرش بني أمية في الأندلس، وقد اتخذ منها الخليفة الحكم ذريعة لتولية ابنه هشام دون بني مروان، وقد فند ابن بسام تلك الذريعة التي استند عليها الخليفة حين قال: ((فلعل الحكم بهذا الخبر توهم، فجاذبه عن أخوته))[٣]. وكان الفقهاء والقضاة الأندلسيون قد

---

(١) الذخيرة، ق٤/ م١ /ص ٥٧؛ مقدمة الدكتور محمود علي مكي (المحقق) لكتاب: ابن حيان: المقتبس، تحقيق: مكي، ص ٩٥.

(٢) تقول النبوءة: **(لا يزال ملك بني أمية بالأندلس في إقبال ودوام ما توارثه الأبناء عن الآباء، فإذا انتقل إلى الأخوة وتوارثوه بينهم فقد أدبر وانصرف)** انظر: ابن بسام: المصدر السابق، ق٤/ م١/ ص٥٧؛ راوية عبد الحميد شافع: دور المرأة في المجتمع الأندلسي من الفتح الإسلامي للأندلس حتى نهاية الدولة الأموية ٩٢ - ٤٢٢هـ، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الإسكندرية، كلية الآداب/ قسم التاريخ، الإسكندرية، د. ت، ص٢٠٧.

(٣) الذخيرة، ق٤/ م١/ ص٥٧.

انتقدوا الخليفة الحكم على ما أقدم عليه ((وإن كان ذوو اللب والنظر، لا يلتفتون إلى مثل هذا الخبر))[١]،وكان القاضي **محمد بن السليم**[٢] ممن عبر عن عدم الرضا لما قام به الخليفة[٣]، وبذلك حرم الخليفة الحكم المستنصر أخوته عبد العزيز، والأصبغ، والمغيرة حقهم في ولاية العرش، فضلاً عن حرمان أبناء الخلفاء من كهول وشبان المضطلعين بالأمر والقادرين عليه[٤].

يتضح مما تقدم أن الخليفة الحكم المستنصر ما كان ليقدم على هذا الأمر لولا وجود تأثيرات عليه تمثلت في زوجه السيدة صبح وأم هشام ابنه الوحيد، والتي كانت تتمتع بمكانة خاصة لديه ((وكانت الغالبة على مولاها))[٥]، وبذلك من المرجح أن يكون الخليفة قد خضع لتأثيرات زوجته وكان أسيراً لها، والتي لا تعدو كونها تأثيرات ذاتية، وقصيرة النظر تغلب مصلحة السيدة صبح ورغبتها الخاصة على أي أمر آخر، وتغفل وتتناسى المصلحة العليا للدولة.

---

(١) المصدر نفسه، ق٤ / م١/ ص٥٧.

(٢) هو محمد بن اسحاق بن منذر بن إبراهيم بن محمد بن سليم بن أبي عكرمة، يكنى أبو بكر، قاضي الجماعة في قرطبة، كان لين الكلمة سهل الخلق متواضعا، توفى سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م وللمزيد من التفصيل انظر: ابن الفرضي: تاريخ العلماء، ت ١٢٥٧، ٢/ ٦٣؛ النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٠١ - ١٠٣.

(٣) إبراهيم عبد المنعم أبو العلا: الأندلس بين سقوط الدولة العامرية ونهاية الخلافة الأموية ٣٩٩ – ٤٢٢هـ، رسالة جامعية غير منشورة كلية الآداب/ جامعة الإسكندرية، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص ٩٢.

(٤) ابن بسام: الذخيرة، ق٤/ م١ / ص٥٧ .

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢/ ٢٥٢.

إن المنصور بن أبي عامر على الرغم مما وفر له الخليفة الحكم المستنصر وزوجه السيدة صبح من رعاية، وجعله في خدمتها وخدمة ابنها هشام المؤيد، فإنه عمل على التنكيل بالأمويين وبشتى الطرق كالقتل والتشريد[١] بعد وفاة الحكم المستنصر، وكان يعلم علم اليقين بتربص الأمويين به، ويعلم أيضاً ذنبه منهم، وأنه متسلط على دولة الأندلس، وقد ورد ذلك في وصيته لابنه عبد الملك حين قال: ((وإياك أن تضع يدك في يد مرواني ما طاوعتك بنانك؛ فإني أعرف ذنبي إليهم))[٢]، بل أنه أوصاه بقتل وتصفية كل من تسول له نفسه بالتمرد عليه ((وصاحب القصر – هشام المؤيد – قد علمت مذهبه وأنه لا يأتيك من قبله شيئ تكرهه، والآفة ممن يتولاه ويتلمس الوثوب باسمه؛ فلا تنم عن هذه الطائفة جملة، ولا ترفع عنها سوء الظن والتهمة؛ وعاجل بها من خفته على أقل بادرة...))[٣].

نصل من كل ما تقدم إلى نتيجة بينة من أن الخليفة الحكم المستنصر يتحمل جزءاً مما أصاب البلاد بعد وفاته من صراعات مهدت كثيراً لسقوط الخلافة الأموية، وذلك لجملة أسباب منها خضوعه لتأثيرات زوجه صبح، متناسياً ما تؤول إليه الدولة من بعد وفاته من تغليب المصالح الشخصية لكبار رجال البلاط على المصلحة العليا للدولة، لاسيما وقد فتح الباب على مصراعيه للحجاب والموظفين الكبار ليديروا شؤون الدولة، مبتعداً عن السياسة،

(١) النويري: نهاية الأرب، ٢٣/ ٤٠٦.

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٨٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٨١. وللتعرف على وصية المنصور كاملة انظر: ملحق (٧)، ص ٢١٧.

ومعتكفاً أكثر ساعات النهار بين مخطوطاته وكتبه، على الرغم من أن العلم والتعلم والاستزادة بهما ضرورية للحاكم، فإنه الأجدر به أن يوفق بين الاهتمام بالعلم والاهتمام بشؤون الدولة التي يجب أن تستحوذ على أغلب وقته، كما أن الخليفة كان يؤمن بالحدثان والرجم بالغيب، ويستند عليه في شؤون الدولة، في حين أن من صفات رجل الدولة الإيمان بالوقائع الحية لا بالتنبؤات والكلام المرجم، وبذلك فإن الحكم المستنصر لم يكن رجل المرحلة، وإن جل ما قام به هو المحافظة على ما ورثه عن أبوه الخليفة الناصر، إذ إنه ورث دولة متكاملة موطدة الأركان خالية من الفتن ((وفي أيامه سكنت الفتنة لتوطيد أبيه الدولة))[١].

ب- سلب ولاية العهد

تقلد عبد الرحمن شنجول الحجابة بعد وفاة أخيه عبد الملك، وكانت باكورة أفعاله بعد أن مضى على تقليده الحجابة شهر ونصف الشهر أن طلب من الخليفة أن يوليه العهد من بعده بمرسوم ويقوم بأمر المسلمين[٢]، في سابقة خطيرة لم يقدم عليها أبوه وأخوه على حد سواء، إذ ليس للخليفة ولد يوليه الخلافة، فاستجاب له الخليفة نتيجة لضعفه، وقد أبلغ أصحابه بأن الخليفة ولاه دون أهله وبني عمومته فتلقفها صحبه، وأشاعوا الخبر وكان هذا الفعل سبباً في نفور وجهاء الأندلس عن الحاجب عبد الرحمن شنجول عندما تبين

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٤١.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب، ٣ ٣٨. وللتعرف على نص المرسوم انظر: ملحق (٦)، ص ٢١٦.

لهم ضعف عقله، حين أقدم على طلب ولاية العهد، ولم يكتف بهذا الفعل بل أضاف إليه تولية ابنه عبد العزيز الحجابة ولقبه بسيف الدولة، وهو من ألقاب عمه عبد الملك[١].

لكن هل من المعقول أن يقدم عبد الرحمن شنجول على خطوة خطرة كهذه ترتب عليها فوضى عارمة ضربت قرطبة - على الرغم مما يملك عبد الرحمن شنجول من صفات سيئة - وذلك من خلال انتزاع ولاية العهد دون أن يستشير أحدا أو يشجعه أحد؟ والإجابة على هذا السؤال تكمن في أن قاضي الجماعة أبو عباس بن ذكوان، وكاتب الإنشاء أبو حفص بن برد هما المؤيدان لعبد الرحمن شنجول في هذا الفعل والمطالبة بالخلافة بعدما استشارهما[٢]. ولم ينته الأمر عن هذا الحد بل سوغوا لعبد الرحمن شنجول ما طلب، واحتجوا بحديث للرسول محمد (ﷺ) قال فيه: ((لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه))، وكان ابن أبي عامر قحطانياً، فقالوا عسى أن

---

(١) المصدر نفسه، ٣ ٤٢، ٤٧؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٩٠ - ٩٤؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص ٣٤٣ - ٣٤٤؛ إبراهيم فرغلي: تاريخ وحضارة الأندلس، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص ١٣١.

(٢) ابراهيم فرغلي: تاريخ وحضارة، ص ١٣٢؛ رنهارت دوزي: المسلمون في الأندلس، ٢/ ١٦٢ ونظم شعر في هذا للشاعر بن أبي يزيد المصري يذم الشخصيتين:

إنَ ابن ذَكوان وابنَ برد قدْ ناقضا الدينَ عين عهدِ

وعاندا الحقَ إذ اقاما حفيدَ شنجه وليَّ عهدِ

انظر: ابن الأبَّار: الحُلَّة السِّراء، ١ / ٢٨١. وكان ممن شهد على ما حصل الوزراء والحكام والفقهاء انظر: ابن عذارى: البيان المغرب، ٣/ ٤٦.

يكون هذا الذي وعد به رسول الله (ﷺ)[١]. وبهذا لا يمكن تحميل عبد الرحمن شنجول المسؤولية كاملة على هذا العمل بل يتحملها أيضاً قاضي الجماعة بن ذكوان، وابن برد كاتب الإنشاء، على الرغم من أنها تمثل غفلة وغرور وقصر نظر من عبد الرحمن شنجول.

يبدو أن هذا الطموح غير المشروع لدى عبد الرحمن شنجول كان موجوداً أصلاً في فكر والده من قبل، إلا أن المنصور استشار بعض المقربين منه فمنهم من أيده ومنهم من منعه فامتنع، وذكر ذلك ابن حزم حين قال: ((والمنصور محمد بن أبي عامر اراد ذلك وجمع للمشورة فيه قوما من خواصه فيهم ابن عياش وابن فطيس وابي رحمه الله / ومن الفقهاء محمد بن يبقى ابن زرب[٢] وأبو عمر بن المكوى والاصيلي. فاما ابن عياش وابن فطيس فصوبا ذلك له، واما ابي رحمه الله فقال له: اني أخاف من هذا تحريك ساكن، والأمور كلها بيدك، ومثلك لا ينافس في هذا المعنى. وأما محمد بن يبقى بن زرب فإنه قال له: وصاحب الأمر ما شأنه؟ فقال له: لا يصلح لهذا، فقال له: يرى ويجرب،

---

(١) ابن الأبّار: المصدر السابق، ١ / ٢٧٠ -٢٧١؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ٣ / ٤٥؛ ابن خلدون: تاريخ، ٤ / ١٧٩ ورد هذا الحديث عند: البخاري، الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخاري الجعفي: صحيح البخاري، دار الفكر، استانبول، ١٤٠١ه / ١٩٨١م، ٤ / ١٥٩، ٨ / ١٠٠.

(٢) هو محمد بن يبقى بن زرب، واحد من أهم الفقهاء في زمانه بالأندلس، كان من أخطب الناس على المنبر وأحسنهم ترتيلا لمنطقه، وكان أحفظ أهل زمانه للفقه على مذهب مالك وأصحابه، حليماً، محتملاً، صبوراً، ولى قضاء الجماعة سنة ٣٦٧ه بعد وفاة محمد بن اسحاق وللمزيد من التفصيل انظر: ابن الفرضي: تاريخ العلماء، ت ١٣٦٣، ٢/ ٩٦ - ٩٧؛ النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٠٣ – ١٠٩.

فقال له: أفي مسائل الفقه؟ يريد أن يسأله، فقال: لا، ولكن في مسائل السياسة والتدبير والمملكة، قال: فإن لم يقم، قال: ينظر في قريش فأعرض عنه مغضبا ونظر الى الأصيلي والى ابن المكوى، فقال له الأصيلي: يامولاي عربي ضابط خير من قرشي مضيع، قال، فنظر إلى ابن المكوى، فجعل يضحك له، ويقول: يا مولاي ومثلك يفكر في هذا وأنت الكل وكل شيئ بيدك، وإنما يرغب في الأسماء من لايحقق، والمدار على الحقيقة، وهي بيدك. فسكت ابن ابي عامر، وقاموا واحداً واحداً.فلما قام القاضي وسلم عليه قال: اخرجوا بين يدي الفقيه، فعظم ذلك على ابن زرب، وقال: لا بأس هذا ما لا تقدرون على عزلنا منه، ونهض الى منزله، فمات بعد أيام يسيرة جداً))[١].

سعى المنصور بن أبي عامر من قبل لنيل ملك الأندلس وهو في حداثة سنه، ويتحدث به أمام أصحابه، ويمنيهم بالولايات، وينقل الفقيه أبو محمد علي بن أحمد رواية عن المنصور تبين مدى طموحه وحلمه بحكم الأندلس، من خلال قوله: ((... إني لابد أن أملك الأندلس، وأقود العساكر، وينفذ حكمي في جميع الأندلس...))[٢]. وهكذا فإن عبد الرحمن شنجول بفعلته هذه

(١) ابن حزم: رسائل ابن حزم، رسالة نقط العروس، ٢ / ٨٦ – ٨٧؛ محمد سهيل طقوش: تاريخ الأندلس، ص ٣٧٣. وقعت أحداث هذه الرواية في رمضان سنة ٣٨١ه/ ٩٩١م، لان وفاة محمد بن يبقى بن زرب كانت ليلة الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان من السنة المذكورة، وبحسب الرواية فإن موته كان بعد أيام يسيرة جداً. انظر: ابن الفرضي: المصدر السابق، ٢/ ٩٧.

(٢) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٠٨. إلا أن هذه الرواية وردت بشيء من الاختلاف البسيط انظر: المراكشي: المعجب، ص ٢٢. وهناك من يعتبر بناء المنصور للزاهرة دليل على

من خلال سلبه لولاية العهد، فإنه فتح باباً لا يغلق إلا بالإطاحة به وبأسرته لأن هذا الأمر ضج له الأمويون، وأهل قرطبة واستعظموه من طغيان، وصارت الثورة عليه من بني أمية أمراً لا مفر منه[١]، لتبدأ صفحة جديدة من الفوضى السياسية ٣٩٩ - ٤٢٢هـ/ ١٠٠٩ - ١٠٣١م في الأندلس، استمرت قرابة عشرين سنة حتى أطاحت بالخلافة الأموية في الأندلس[٢].

ج- سياسة التمييز العنصري واستخدام القسوة المفرطة

اختلفت السياسات التي اتبعها حكام الأندلس مع مكونات المجتمع الأندلسي حسب ميل الحاكم إلى أي مُكون، والاعتماد عليه على حساب المكونات الأخرى، فهذا الخليفة الناصر عندما قرب الفتيان الصقالبة، وجعلهم قادة على حساب العرب الذين كان رد فعلهم هو خذلانه عند المواجهة في معركة الخندق التي أطلق عليها الناصر غزوة القدرة، وتحدثت المصادر التاريخية عن الناصر بالقول: ((ولكنه عفا الله عنه مال الى اللهو، واستولى عليه العجب... وأغاض الأحرار في إقامة الأنذال كنجدة الحيرى وأصحابه الأوغاد فقلده عسكره، وفوض إليه جليل أموره، وألجأ أكابر

طموحاته السياسية في الوصول إلى الحكم انظر:

Gpal Fronsois: Regards sur al – Andalus:VIII – XV siècle,Casa de velazques Editions Rue d ulm , Paris , ٢٠٠٦ , P. ٣٤

(١) ابن الكردبوس: الاكتفاء، ص ٣٨٩. كان أهل قرطبة حانقين على شنجول بسبب أفعاله التي فيها استخفاف في الدين، والتي منها أنه سمع المؤذن يقول حي على الصلاة فقال (لو قال حي على الكأس لكان خيرا له) انظر: رينهارت دوزي: المسلمون في الأندلس، ٢/ ١٦١

(٢) Guichard Pierre: Lespagne,et la sicile musulmanes,aux xie et xiie siecles,Presses universitaires de Loyn, Lyon,٢٠٠٠ , P. ١٤ - ١٦

الأجناد ووجوه القواد والوزراء من العرب وغيرهم الى الخضوع له والوقوف عند أمره ونهيه، وحال نجدة حال مثله في غيه واستخفافه وركاكة عقله، فتواطأ أهل الحفاظ من رجاله ووجوه أجناده على ما كان من انهزامهم في الغزوة التي غزاها عام ستة وعشرين وثلثمائة وسماها غزوة القدرة، لاحتفاله فيها وعظيم مشهدها، فهزم فيها أقبح هزيمة، وأتبعهم العدو أياماً يأسرونهم ويقتلونهم في كل محلة...))[1]، وبهذا فإن الناصر جعل السيادة بيد عنصر واحد دون العناصر الأخرى، ولكن لا يمكن اعتبار التمييز العنصري الذي مارسه الناصر بتفضيله الصقالبة على العرب هو السبب الوحيد لتلك الهزيمة، وإنما كان هناك أسباب أخرى لا تقل أهمية عن السبب الأول، تتمثل بالطريقة التي استخدمها الناصر وعماله في جمع المقاتلة، عندما أمر عماله على استخدام القوة في جمع الناس للجهاد، عندما حث كل واحد من عماله على ذلك قائلا: ((وليكن حشدك حشراً لا حشدا))[2]، وبذلك فإن قوات الناصر كانت بين كاره وراغب في المشاركة في المعركة[3]، وهذا ما انعكس سلبا على أداء المقاتلين، فانسحب المكرهين على القتال في أول فرصة سنحت لهم، فانكسر الجيش لأجل ذلك وحلت الهزيمة، وكان ما حصل أحد الأسباب المهمة لتلك

(١) مؤلِّف مجهول: أخبار مجموعة، ص ١٣٧.

(٢) ابن حيان: المقتبس، نشر ب شالميتا ف – كورينطي م صبح المعهد الاسباني العربي للثقافة، مدريد، ١٤٠٠ه/ ١٩٧٩م، ص ٤٣٣.

(٣) المصدر نفسه والصفحة. هناك من أضاف لتلك الأسباب انضمام بني إسحاق الأمويين إلى ملك ليون في هذه المعركة انظر: رجب محمد عبد الحليم: العلاقات بين الأندلس الإسلامية واسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف، دار الكتاب المصري، القاهرة، د. ت، ص ١٨٠.

الخسارة في المعركة.

أما الحاجب المنصور بن أبي عامر فقد اعتمد على عنصر البربر، محاولة منه لإزالة العصبية العربية من الجيش حتى يضمن ولاء الجيش، إذ جلب الكثير منهم إلى العاصمة قرطبة من العدوة المغربية وأفريقيا حتى غصت بهم قرطبة وأرباضها[١].

لم يقف الأمر عند هذا الحد وإنما قام بتقديم البربر على حساب العرب الذين أسقطت مراتبهم، ((... وقدم رجال البرابرة وزناتة وأخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم...))[٢].

نهج المنصور بن أبي عامر نهجاً مشابهاً لما قام به الخليفة الناصر، حيث قدم الناصر الصقالبة وقدم المنصور البربر، وإن هذا التمييز على أساس العنصر يجعل العنصر المتفوق يضطهد بقية العناصر الأخرى المكونة للمجتمع الأندلسي.

وعلى الرغم من أن هذه السياسة آتت أكلها، واستطاعت إيجاد سلطة مركزية قوية سيطرت على مقاليد الأمور في الأندلس في عهد الخليفة الناصر،

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢/٢٧٩؛ ابن خلدون: تاريخ، ٤/ ١٧٧؛ راغب السرجاني: قصة الأندلس، ١/ ٢٦٠

(٢) المقري: نفح الطيب، ١/ ٣٩٧. إن السياسة الاستبدادية والقمعية التي اتبعها المنصور بن أبي عامر وقتله لمعارضيه وتصفيتهم على اختلاف مناصبهم، جعلته يعيش غير آمن ممن يحيطون به، لذلك استقدم البربر وقدمهم ليصبحوا الدرع الواقي له من ردود أفعال معارضيه. انظر: ايلي لومبير: تطور العمارة، ص١٢٩ .

ولكن لم يختلف الحال عندما سيطر المنصور بن أبي عامر على مقاليد الأمور في الأندلس حتى إنه ((استولى على الدولة، وملأ الدنيا وهو في جوف بيته))[١]، وإذا كانت هذه السياسة قد حققت نجاحات على كافة الأصعدة والمجالات في الأندلس، فإن تلك النجاحات يمكن أن توصف بأنها نجاحات وقتية ارتبطت بالحاكم القوي، فعندما يذهب الحاكم ويأتي غيره تتغير الكثير من الأمور، وخاصة ما تعلق بسياسة الحاكم تجاه المجتمع وطبقاته المختلفة، فيبدأ فصل جديد من أفول نجم طائفة وظهور نجم طائفة غيرها، وهذا ما حصل عندما ضعفت سطوة الصقالبة بوفاة الخليفة الناصر لتظهر للعيان سطوة البربر الذين قربهم المنصور واعتمد عليهم كثيراً على حساب العرب، شأنه شأن الخليفة الناصر، ولذلك فإن تلك السياسة تخفي في ثناياها عوامل الضعف والهدم والتفرق، فكان كل عنصر من عناصر المجتمع في الأندلس يخشى على نفوذه وسلطانه، ويحاول القضاء على العناصر الأخرى المناوئة له، فكانت المعارك الدامية بين عناصر المجتمع المختلفة، والتي ظهرت عند أول ضعف للسلطة المركزية، وذلك من خلال الانفجار الذي قاده الأمويون وقضوا بموجبه على بقايا الأسرة العامرية سنة ٣٩٩هـ/ ١٠٠٨م[٢]، إذ استغل الأمويون الوضع المتردي في قرطبة لينقضوا على السلطة ((... واهتبل بنو مروان وشيعتهم بالبلد، غرة العامريين فيما ارتكبوه من ذلك فدبت عقاربهم الى الناس وقاموا في قلب الدولة العامرية بجد وبصيرة، فلم يخذلهم الناس،

(١) ابن خلدون: تاريخ، ٤/ ١٧٧.

(٢) ابن خلدون: تاريخ، ٤/ ١٧٩؛ المقري: نفح الطيب، ١/ ٤٢٦.

وظفروا بالبغية))[١]، وقد تزعم محمد المهدي الأمويين ومعهم أهل قرطبة[٢]، وقام باضطهاد طائفة الصقالبة العامريين من خلال القبض على قسم منهم، وترحيلهم خارج قرطبة بعد أن نهبت أموالهم[٣]، كما اضطهد البربر أيضاً وتم الاعتداء عليهم وعلى دورهم، وإهانة زعمائهم فضلاً عن منعهم من الركوب وحمل السلاح[٤]، ووصل الأمر باضطهاد الخليفة المهدي للبربر إلى الحد الذي أعلن بأن من يأتي برأس واحد من البربر فله مكافأة فسارع أهل قرطبة إلى قتل كل من صادفوه من البربر[٥].

عد التمييز العنصري والقسوة المفرطة في التعامل والبطش بالبربر وغير البربر من مكونات مجتمع الأندلس من السياسات المُنَفرة للرعية، لأنها ستولد نتائج سلبية في المستقبل القريب، لا على الخليفة المهدي فحسب وإنما على مستقبل الأندلس بأسره، وعلى مستقبل الخلافة على وجه الخصوص، لذلك ((فإن الملك إذا كان قاهراً باطشاً بالعقوبات منقباً عن عورات الناس، وتعديد ذنوبهم شملهم الخوف والذل، ولاذوا منه بالكذب والمكر والخديعة، وتخلقوا بها، وفسدت بصائرهم وأخلاقهم، وربما خذلوه في مواطن الحروب والمدافعات ففسدت الحماية بفساد النيات، وربما أجمعوا على قتله لذلك، فتفسد الدولة ويخرب السياج، وإن دام أمره عليهم وقهره فسدت العصبية لما

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، ٣ / ٤٣.

(٢) المصدر نفسه، ٣/ ٥٣.

(٣) المصدر نفسه، ٣/ ٧٧؛ راغب السرجاني: قصة الاندلس، ١/ ٢٩٤.

(٤) ابن خلدون: المصدر السابق، ٤/ ١٨٠؛ المقري: المصدر السابق، ١/ ٤٢٧.

(٥) ابن عذارى: المصدر السابق، ٣/ ٨١.

قلناه أولاً وفسد السياج من أصله بالعجز عن الحماية))[١].

((وإذا كان رفيقاً بهم متجاوزاً عن سيئاتهم استناموا إليه ولاذوا به وأشربوا محبته واستماتوا دونه في محاربة أعدائه فاستقام الأمر من كل جانب))[٢]. وقد أثبتت الأحداث التاريخية في الأندلس صحة هذا التحليل في مسيرة الحكام المسلمين في الأندلس، ومقدار ما تخلفه سياسة اللين والاعتدال من استقرار، ورضا الرعية، وسيادة الطمأنينة، والرخاء كما حصل في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط والخليفة عبد الرحمن الناصر على سبيل المثال، وعلى العكس مما تثيره سياسة العنف والقسوة تجاه الرعية من فوضى واضطراب كما حصل في عهد الخليفة محمد المهدي.

لقد ترتب على السياسة العنصرية والقسوة المفرطة للخليفة محمد المهدي تجاه البربر واضطهاده لهم ردود أفعال، منها سعيهم وبحثهم عن شخصية أموية يولوها أمرهم، حتى يأخذوا ثأرهم من محمد المهدي وأهل قرطبة فاهتدوا إلى سليمان بن الحكم بن سليمان ابن الخليفة عبد الرحمن الناصر ((فبايعوه ولقبوه المستعين بالله، ونهضوا به إلى ثغر طليطلة))[٣]، فقام بدوره واستنجد بالنصارى فانجدوه ومَن معه من البربر[٤]، فقام سليمان المستعين

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٢) ابن خلدون: المقدمة، ص ٢٣٨.

(٣) المقري: نفح الطيب، ١/ ٤٢٨.

(٤) ابن حزم: رسائل ابن حزم، رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها، ٢/ ١٩٧؛ ابن الأثير: الكامل، ٧/ ٣٧١؛ ابن عذارى: البيان المغرب، ٣/ ٨٣ .

بحشد قواته من بربر ونصارى لمواجهة قوات محمد المهدي ومعه أهل قرطبة، وكان نتيجة هذا الحشد أن اصطدم الطرفان في مواجهة عسكرية كان النصر فيها لسليمان المستعين، مخلفة قتلى من المسلمين بلغ أكثر من ثلاثين ألفا[١]، وراح ضحيتها من ((الخيار والفقهاء وأئمة المساجد والمؤذنين خلق كثير))[٢]. واستمر الصراع الدامي سجالا بين البربر وأهل قرطبة، حتى دخل سليمان المستعين قرطبة بمساندة البربر سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م، وعندما استقر له الأمر راح يميز البربر على حساب أهل قرطبة، إذ حصد البربر ثمن مساندتهم لسليمان المستعين عندما استولى زعماء البربر على أجزاء واسعة من البلاد وخاصة المدن العظيمة مثل: باديس بن حبوس على غرناطة، وخرزون على **شريش**[٣]، والبرزالي على قرمونة، واليفرني على رندة[٤]. وهكذا فإن سليمان المستعين نَهَجَ نَهْجَ سلفه الخليفة محمد المهدي في سياسة التمييز العنصري، التي دمرت الزرع والضرع وراح ضحيتها الآلاف من المسلمين، فضلاً عن تشتيت شمل وحدة الأندلس.

---

(١) ابن عذارى: المصدر نفسه الجزء والصفحة؛ محمد عبده حتامله: الأندلس، ص ٤٣٠.

(٢) المراكشي: المعجب، ص ٣١. وقد وصف ما حصل في المعركة من قتل النصارى للمسلمين ((**فكان أول ثارات المشركين على المسلمين**)) انظر: ابن عذارى: المصدر السابق، ٣/ ٨٣. وبذلك فإن المستفيد الأول هم النصارى.

(٣) واحدة من كور شذونة في الأندلس، وهي كورة حصينة وعلى مقربه من البحر، كثيرة الكروم وشجر الزيتون وشجر التين. وللمزيد من التفصيل انظر: الإدريسي: نزهة المشتاق، ٢/ ٥٧٢ – ٥٧٣؛ الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص ١٠٢.

(٤) المقري: نفح الطيب، ١/ ٤٢٩؛ محمد عبده حتامله: الأندلس، ص ٤٣٥.

عندما آلت الأمور إلى علي بن حمود مارس سياسة التمييز العنصري واستخدام القسوة المفرطة في بداية عهده، إذ عمل على إرهاب البربر وقهرهم، بل ومارس معهم شتى أنواع الاضطهاد حتى أذلهم ((ولمَّا صارت لعلي بن حمود الخلافة تقدم من القهر للناس بالغلبة والإرهاب لهم بما خامر القلوب من هول سطوته ولاسيما برابرة العسكر لما حل بهم من الذل والقتل فدهشوا منه وقادهم مديدة قود الإبل المخطومة، واعتدى عليهم الخصوم حتى صار اقل الرعية يرفع اعتاهم إلى الحكام بما شاء من وجوه الدعاوى فتجري عليهم الأحكام...))[١].

مارس علي بن حمود القسوة مع أهل قرطبة أيضاً عندما علم بتغير أهوائهم نحو أحد الأمويين، وهو المرتضى عندما خرج مطالباً بالخلافة، إذ صب جَامَ غضبه عليهم وأذلهم، وهدم بيوتهم حتى كان أحدهم لا يسلم على نفسه عند خروجه نهاراً مما اضطرهم إلى الخروج ليلاً، وكان لذلك آثار سلبية على الوضع الاقتصادي ((وصب على أهل قرطبة ضروباً من التنكيل والمغارم وانتزاع السلاح منهم وهدم دورهم وقبض أيدي الحكام عن إنصافهم وأغرم عامتهم وتوصل إلى أعيانهم بأقوام من شرارهم... فأخذت على الناس الأقطار فاظلمت الدنيا وأبلس أهلها وغشيهم من أمر الله ما غشيهم فلزموا البيوت وتطمروا في بطون الأرض حتى قَلَّ بالنهار ظهورهم وخلت أسواقهم فإذا دنا المساء وكف الطلب عنهم انتشروا تحت الظلام لبعض حاجتهم))[٢].

---

(١) ابن بسام: الذخيرة، ق١ / م١ / ص ٩٧.

(٢) ابن بسام: الذخيرة، ق١ / م١/ ص ٩٩- ١٠٠.

وَلمَّا آلت الأمور إلى القاسم بن حمود وأصبح خليفة هو الآخر بعد قتل أخيه، قام بتقريب العبيد والسودان على حساب أهل قرطبة، والبربر الذين احتقروه[١]، مما دفع الكثير منهم إلى الالتفاف حول ابن أخيه يحيى بمساعدة أخيه إدريس صاحب مالقة[٢].

وَلمَّا عاد القاسم بن حمود بدولته الثانية ناصب أهل قرطبة العداء بعد أن تقرب من البربر، وبذلك انقسم مجتمع قرطبة إلى ثلاث فئات متنافرة[٣]:

الفئة الأولى: متمثلة بالعبيد والسودان وهم من أنصار القاسم بن حمود.

الفئة الثانية: وهم السواد الأعظم من البربر أبقوا على ولائهم ليحيى بن علي الحمودي.

الفئة الثالثة: وهم أهل قرطبة متأملين المنقذ وعودة الخلافة الأموية.

استمرت سياسة التمييز العنصري وتفضيل عنصر على آخر، مما أدى إلى تشتيت المسلمين، وجعل كل فرقة تتحين الفرصة على الأخرى وتكن لها العداء.

---

(١) المصدر نفسه، ق١ / م١ / ص٤٨١؛ ابن عذارى: البيان المغرب، ٣/ ١٣٠؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس، الناشر مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٤٠٥ه/ ١٩٨٤م، ص ٦٤.

(٢) المقري: نفح الطيب، ١/ ٤٨٦.

(٣) المصدر نفسه، ١/ ٤٨٧.

خلاصة القول أن السياسات المتقلبة والعنصرية التي اتبعها حكام الأندلس من خلال التمييز والتفرقة مابين عناصر المجتمع الأندلسي، فضلاً عن سياسة البطش والشدة والابتعاد عن اللين والاعتدال في التعامل مع الرعية، كل ذلك كان أحد العوامل التي أدت إلى سقوط الخلافة في الأندلس.

ثانيا: العوامل الاقتصادية

أ- تعاظم النزعة الدنيوية

ذكر فيما تقدم كبر حجم الجبايات ووفرتها والتي كانت ترد على خزينة الدولة في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر، مما كان له كبير الأثر على ازدهار الوضع الاقتصادي العام في الأندلس، واستمر يسر الحال والرخاء الذي عم الأندلس في عهد الخليفة الحكم المستنصر، وكذلك شمل الرخاء فترة تسلط المنصور بن أبي عامر على مقاليد الأمور، إذ وصل حجم ما تركه المنصور بن أبي عامر لابنه عبد الملك من أموال طائلة ظهر في وصيته لابنه حين قال: ((وغايرت لك بين دخل المملكة وخرجها واستكثرت لك من أطعمتها وعددها وخلفت جباية تزيد على ما ينوبك لجيشك ونفقتك فلا تطلق يدك في الإنفاق ولا تقيض لظلمة العمال فيختل أمرك سريعا))[1]، فضلاً عن المال المخزون عند زوجة المنصور وأم عبد الملك والذي عده المنصور ذخيرة لعبد

(١) ابن بسام: الذخيرة، ق٤ / م١/ ص ٧٦؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص٣٣٤؛ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول / القسم الرابع / ص ٥٨١. وللتعرف على وصية المنصور بن أبي عامر إلى ابنه عبد الملك كاملة انظر: ملحق (٧)، ص ٢١٧.

الملك ودولته[١].

لقد ترتب على ذلك الازدهار ارتفاع المستوى الاقتصادي لمعظم السكان، مما جعل المجتمع في الأندلس تزداد نزعته الدنيوية وحبه للحياة من دون تضحية، لذلك نقصت أعداد الرعية المتطوعين للقتال في سبيل الله ومن أجل الإسلام، والمسلمين ووحدة البلاد، وما يتطلبه ذلك من جهاد، كما أصبح التركيز على زخرف الدنيا والترف وأصبح الإسراف هو السمة السائدة في المجتمع وخصلة من خصال قادته، والتي حذر منها رجال الدين أمثال المنذر بن سعيد البلوطي عندما حذر الخليفة عبد الرحمن الناصر من الانغماس والإسراف في زخرف الدنيا ببنائه مدينة الزهراء[٢]، وأشار إلى ذلك من قبل سبحانه وتعالى: ((وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً))[٣].

كما أن زيادة الثروات في الأندلس كان له كبير الأثر على الطبقة العليا، الأمر الذي أدى بالنتيجة إلى انقسامها إلى فئات كل فئة تسعى جاهده من أجل تحسين وضعها المادي على حساب الفئات الأخرى، وزيادة مكسبها من تلك الثروات، كما أن الحوافز المادية كانت في الأغلب هي المحرك الرئيسي للطبقة العليا، وكان قادة السلطة على كامل الاستعداد لاستغلال الدين لحث العامة على الانخراط في العمليات العسكرية، في الوقت الذي كانت فئات من الطبقة

(١) ابن بسام: المصدر السابق، ق٤/ م١/ ص ٧٦.

(٢) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ٩٤.

(٣) سورة الإسراء: آية ١٦.

العليا تدرك الهدف من ذلك الاستغلال، فمثلاً كان هدف العامريين الأساسي الأمجاد العسكرية والغنائم أكثر منه أن يكون هدفهم دينياً صرفاً كإخضاع النصارى، وبذلك فإن الطبقة العليا قل تأييدها لهذه السياسة بمرور الوقت، وربما هذا الموقف قد تسرب لطبقات أدنى في المجتمع، وبذلك فإن زيادة الرفاهية زادت من نظرة المجتمع المادية مما جعل الكثيرين غير مستعدين لتعريض أنفسهم لمشاق الحملات العسكرية[١]

ب- الكوارث الطبيعية والصراعات الداخلية

تعد الكوارث الطبيعية من العوامل التي عجلت بسقوط الخلافة لما لها من تأثير مباشر على كافة طبقات المجتمع الأندلسي دون تمييز، وعلى الجانب الاقتصادي بالدرجة الأساس، وقد تمثلت تلك الكوارث بالأوبئة، والفيضانات، وأسراب الجراد وغيرها، إذ حصل وباء شمل كافة مناطق الأندلس سنة ٣٧٣ه/ ٩٨٣م[٢]، وكذلك غزو الجراد الذي استمر لثلاث سنوات من سنة ٣٨١ – ٣٨٣ه / ٩٩١ – ٩٩٣م والذي أثر تأثيراً سلبياً كبيراً على المحاصيل الزراعية[٣]. فضلاً عن فيضان نهر قرطبة والسيل العظيم سنة ٣٨١ه/ ٩٩١م الذي استمر ثلاثة أيام وأسفر عن موت ما يقرب من خمسة آلاف شخص بين غرق وردم، فضلاً عن هدم نحو ألف دار وهدم المساجد والقناطر وقضى على الأسواق وأضر مدينة الزهراء، وهذا أدى بدوره إلى

(١) مونتغمري واط: في تاريخ إسبانيا الإسلامية، ترجمة: محمد رضا المصري، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط٢، بيروت، ١٤١٩ه/ ١٩٩٨م، ص ١٠٠ – ١٠١.

(٢) مؤلِّف مجهول: تاريخ الأندلس، ص ٢٢٢.

(٣) مؤلِّف مجهول: تاريخ الأندلس، ص ٢٢٣.

تشريد الكثير من الناس وضياع متاعهم ومالهم، فضلاً عن الأسعار التي راحت ترتفع يوما بعد الآخر، وازداد حال الناس بُؤْساً حتى أكلوا الميتة[١]. وفي سنة ٣٨٢ه/ ٩٩٢م هبت رياح شديدة هدمت الديار، وقلعت الأشجار وكل ما صادفها واستمر هبوبها ثلاثة أشهر ونصف الشهر دون توقف، وبعد ثلاث سنوات، أي في سنة ٣٨٥ه/ ٩٩٥م هبت ريح عظيمة هائلة قلعت كل ما صادفها من زروع وأشجار وحتى البهائم التي كانت تسير مع الرياح بين السماء والأرض[٢]، وكذلك الوباء الذي حل بقرطبة سنة ٤٠١ه/١٠١٠م والذي راح ضحيته الآلاف من الناس[٣].

كان للاقتتال والصراعات الداخلية أثر واضح على قرى قرطبة التي تعد مصدراً للغلات والأموال التي تساهم في تنمية ميزانية الدولة حتى ((... محيت رسوم تلك القرى وغيرت آثار ذلك العمران، فصار أكثرها

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، ٣ / ١٠٥ – ١٠٦.

(٢) مؤلِّف مجهول: المصدر السابق، ص ٢٢٥. على الرغم من المبالغة الواضحة في هذه الرواية إلا أن الشك غير وارد بمصداقيتها، شأنها شأن بعض المصادر التي اعتادت على تبني روايات مبالغ فيها إلى حد ما، ولاسيما ما يتعلق بهذه الرواية عندما تطرقت إلى سير البهائم بين السماء والأرض في الوقت الذي هناك بهائم وزنها أثقل من الإنسان، ولم يحدث أن سمعنا أو قرأنا أن إنسانا طار بمثل ما حدث لتلك البهائم بحسب زعم الكاتب والذي لم يحدد نوعها.

(٣) ابن حزم: طوق الحمامة في الألفة والأُلاَّف، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط٥، بيروت، ١٤٢٩ه/ ٢٠٠٨م، ص ١١٤؛ خزعل ياسين مصطفى: الكوارث والظواهر الطبيعية في الأندلس ١٣٨ – ٤٢٢ه، مجلة آداب الرافدين، العدد / ٥٤، الموصل، ١٤٣٠ه/ ٢٠٠٩م، ص ١٩ .

خلاء...))[١].

كذلك كسدت الأسواق وتدهورت الأحوال الاقتصادية في عهد آخر خليفة أموي في الأندلس هو هشام المعتد بالله الذي وصف بالضعف إذ اعتمد على وزيره الذي أساء تدبير شؤون الدولة، وكان قد((ضعف أمر هشام، لسوء تدبير وزيره حكم القزاز، وبلغ من الظلم والجور أن كسدت أسواق قرطبة ولم تسلك سبلها...))[٢]، وبذلك فإن الكوارث الطبيعية والصراعات الداخلية كان لها كبير الأثر على تردي الأوضاع العامة في الأندلس.

ثالثا: العوامل الاجتماعية

أ- أثر البربر في سقوط الخلافة

ذكرنا سلفا كيف أن المنصور بن أبي عامر جلب أعداداً كبيرة من البربر إلى الأندلس، وأن سبب ذلك يعود إلى ضعف عصبية العرب، بل إن ابن خلدون جعل سبب انهيار دولة بني أمية في الأندلس ناجم عن فساد عصبتها من العرب الأمر الذي أدى إلى استيلاء ملوك الطوائف على أمرها[٣].

كانت الفتنة وما حصل من حروب أهلية في الأندلس، وما تلا ذلك من حكم ملوك الطوائف هو نتيجة حتمية لسياسة الدولة التي فتحت الباب على

(١) ابن غالب: فرحة الأنفس، ص ٣٧ .

(٢) ابن بسام: الذخيرة، ق٣ / م١ / ص ٥٢٢.

(٣) ابن خلدون: المقدمة، ص ١٩٨ .

مصراعيه لاستقبال المحاربين من البربر، حتى ضاقت بهم قرطبة، وقد رغب هؤلاء بامتلاك الأراضي والعقار والتجارة، وكان زاوي بن زيري ينفق بسعة بسبب ما جاء به من بلده من عقود وذخائر فيبيع من ذلك كل غال ونفيس[١].

عندما عجز أهل الأندلس عن المشاركة بالجهاد، وشكوا للمنصور ذلك متذرعين بعمارة الأرض، استجاب لهم المنصور، ولبى لهم طلبهم بإعفائهم من المشاركة بالقتال[٢]، واستطاع أن يسقط العرب عن مراتبهم في الجندية[٣]، وجند أعداداً كبيرة من البربر في الجيش ((... فباجازة البرابرة أخمل بهم أولئك الاعلام الأكابر وانه قاومهم بأضدادهم واستكثر من أعدادهم حتى تغلبوا على الجمهور وسلبوا عنهم الظهور...))[٤]، وبذلك أصبح الطريق مفتوحاً للبربر للسيطرة وأخذ الدور الريادي في الأندلس بعدما أضحوا المادة الرئيسية للجيش وحازوا على مناصب قيادية فيه[٥]، وهكذا استطاعت طبقة البربر هذه أن تطغى على كافة طبقات المجتمع في الأندلس بفضل المنصور بن أبي عامر، حتى سيطرت سياسياً ورغبت في الاستغلال الاقتصادي، وبذلك كان أهل قرطبة أول المتأثرين بموجة البربر هذه، والتي خطفت منهم البريق السلطوي في الحاضرة، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل قام البربر بسرقة ونهب منازل

(١) ابن بسام: المصدر السابق، ق٤ / م١ / ص ٨١ – ٨٢.

(٢) ابن بلكين: التبيان، ص ٣١.

(٣) المقري: نفح الطيب، ١/ ٣٩٧.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢/ ٢٧٤.

(٥) Vila Jacint Bosch:Cuadenos Biblioteca Espanola De Tetuan,Biblio teca Ecpanola , Tetvan, ١٩٦٤ , P. ٣١.

القرطبيين في الجانب الغربي من قرطبة والاستحواذ على تلك المنازل والسكن فيها[١].

ينبغي تسليط الضوء على سياسة الخليفة الحكم المستنصر حيال البربر، والتي تميزت بالاختلاف ما بين بداية حكمه والفترة اللاحقة: أما سياسته في فترة حكمه الأولى التي سار فيها على نهج سياسة والده الخليفة الناصر ((لم يزل الخليفة الحكم سالكاً سبيل والده الخليفة الناصر السامي بقدره الى الملك فرضة بلد العدوة سبته، المرهوبة من تقحم أهلها ومن ورائهم من البرابرة عليه، فحازها دون من كان قبله من آبائه استظهاراً على ضبط المجاز عليه واليه، واستطالة بفضل قوته واشتداد سلطانه، معتليا على من جنح من امرائها، منطوياً على الحذر من بوادرهم، معتقداً قلاهم والازورار عنهم مقتصراً على من أظهر مكاتبته منه وموالاته على بعد واحتراس من كيادهم مطيبا لهم بالإهداء والرفد، غير مستدع لهم إلى العبور عليه ولا مستكثر منهم بالإمداد لهم، مقتنعاً برجال أندلسه وصنائع سلفه، غانياً بهم عمن سواهم، لا يستخدم من البرابر إلا أراذلهم وعبدانهم من أشابتهم / وأساودهم، موقعاً عليهم اسم الطنجيين مقتصراً بهم على أدنى الملاحق قاصراً لهم على أقل الرواتب، مصرفاً لهم في أشق الخدمة، وأنهى خلفه ابنه الخليفة الحكم في امتثال ذلك صدر دولته، وشد يدا باستعماله، وربط قلبا على إبرامه...))[٢].

يتبين من خلال النص السابق سياسة الحكم المستنصر في صدر دولته

(١) ابن حزم: طوق الحمامة، ص ١١٥.

(٢) ابن حيان: المقتبس، تحقيق: الحجي، ص ١٨٩ – ١٩٠.

حيال البربر التي تمثلت في ابتعاده عنهم قدر الإمكان مكتفياً برجال الأندلس، ولم يَدْعُهمْ للعبور إلى الأندلس فضلاً عن استعماله لعبيدهم في الخدمة الشاقة وبأبخس الأثمان، حتى وصل الأمر إلى الحد الذي جعل الخليفة الحكم يكره أن يتشبه غلمانه وأجناده بالبربر أو التشبه بزيهم ومراكبهم بأي شكل من الأشكال، أما سياسته اللاحقة فتتمثل في التغير الذي طرأ على سياسة الخليفة الحكم المستنصر حيال البربر، إذ ظهر ذلك التغير عند حرب الخليفة الحكم المستنصر مع الحسنيين بالعدوة، وقتلهم لقائده ابن طملس، عندئذ قرر الخليفة استمالة البربر لجانبه ضد أبناء جلدتهم في العدوة ثأراً لهزيمته ولمقتل قائده، والتي عدها اهانة للخلافة الأموية، لذلك أسكنهم الأندلس صافحاً عنهم بعد ما كان من إساءتهم، وألحقهم بجنده وأكرمهم بعطائه وبوأهم بداره[١].

في آخر عهد الخليفة الحكم المستنصر ((اكتملت الفرق الثلاث البربرية: رجال بني حسن ورجال ابني الأندلسي ورجال البرازلة))[٢]، وهكذا فإن سياسة الحكم المستنصر في حربه في المغرب جعلته يزيد من الاستعانة برجال البربر وقوادهم، ويتحمس لتلك الحرب ويعد لها العدة والعدد ((فقاد خيول الأندلس اليهم، وربط أكابر قواده بثغرهم، وغطى البحر بينه وبينهم بأساطيل الأموال والاسلحة والعدد والاطعمة التي أفرغها على مراسيهم وتحويل المستمالين من أهل بلدهم عليهم...))[٣]

---

(١) ابن حيان: المقتبس، تحقيق: الحجي، ص ١٩٠ – ١٩١؛
OP.Cit ,: Vila , p. ٣١.

(٢) المصدر نفسه والمحقق، ص ١٩٢.

(٣) المصدر نفسه والمحقق، ص ١٩١ .

يتضح مما سبق أن ابن حيان حمل الخليفة الحكم المستنصر المسؤولية في تجنيد البربر للحرب في المغرب، وليصبحوا فيما بعد عُدَّةً وعوناً لولي عهده هشام، الأمر الذي جعل المنصور بن أبي عامر يزيد منهم خدمة لأمجاده العسكرية، إذ كانت

المغرب المعين الذي لا ينضب من الرجال الذين جلب منهم الكثير مستظهرا بهم، وسيدهم على طبقات أجناده، وخصهم لنفسه[١]. وكذلك سار أبناؤه من بعده على المنهج نفسه في جلب البربر الذين ما برحوا أن وقفوا بالمرصاد لأهل قرطبة، وأصبح كل طرف ينظر للطرف الآخر بعين الحذر والريبة.

استشعر بربر المنصور بأن لهم الفضل الأول في الأمجاد العسكرية التي تحققت، لذا فيجب أن يتمتعوا بالنفوذ السياسي والاقتصادي، في الوقت الذي توصف شخصية البربري على لسان وانزمار بن أبي بكر البرزالي في حديث له مع المنصور بن أبي عامر بأن ((البربري مجوع حديث العهد بالبؤس))[٢]، وهنا يتبادر سؤال: إذا كانت شخصية البربري بهذا المستوى من العوز والفاقة فكيف إذا سنحت له الفرصة والسطوة على السياسة والاستغلال الاقتصادي؟ وبالمقابل حاول أهل قرطبة الكارهين لهم مقاومتهم، ولكن شخصية المنصور

(١) ابن حيان: المقتبس، تحقيق: الحجي، ص ١٩٢.

(٢) ابن سماك، أبو القاسم محمد بن أبي العلاء محمد العاملي المالقي الغرناطي: الزهرات المنثورة في نكث الأخبار المأثورة، تحقيق: محمود علي مكي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م، ص ٧٢ – ٧٣؛ المقري: نفح الطيب، ١/ ٤١٧ .

الذكية والحاسمة حالت دون أن يحصل صدام بين الطرفين، بل أقام توازن بين الطرفين، ولما مات المنصور وغابت شخصية الحاجب القوية اختل التوازن وبدأ ذلك الصراع يطفو إلى السطح، إذ سعى البربر لاستخدام القوة لإثبات كيانهم الجديد، ولكن وعلى الرغم من إعجاب ابن حيان بالبربر لبسالتهم وقدرتهم على الجلاد، إلا أنه يحملهم الكثير من المسؤولية في ذلك الصراع وما حصل في الأندلس، إذ نندد بقسوتهم وحقدهم الدفين على الدولة الأندلسية، فضلاً عن رغبتهم المسعورة في نقض وتهديم الحضارة الأندلسية منذ أول لحظة سمحت لهم بذلك، وإذا كان ابن حيان قد حمل البربر ما حملهم من أسباب الفتنة، فإنه لا يبرئ أهل قرطبة من تلك المسؤولية، ويندد بهم أيضاً لرفضهم كل صلح مع البربر على الرغم من ضعفهم وعجزهم[١]. وبذلك فإن من يتحمل مسؤولية الصراع الدامي هي كل الأطراف ولا يمكن أن نحمل البربر وحدهم المسؤولية.

ب- سيادة الإقطاع العسكري

إن تفشي ظاهرة التجزئة الإقليمية والإثنية التي رافقت تصدع الخلافة في الأندلس، أدى إلى انتشار ما يعرف بالإقطاع العسكري، وسيطرة وتحكم قادة العسكر على مقاليد الأمور السياسية في الأندلس إلى الحد الذي عدوا بموجب ذلك((أزمة الملك وقوام الخدمة ومصابيح الأمة))[٢]، إلا أن تلك السيطرة والتحكم بمقاليد الأمور ازداد بشكل ملحوظ ولافت للنظر في عهد الخليفة

(١) ابن حيان: المقتبس، تحقيق: مكي، مقدمة المحقق ص ٩٢ – ٩٣.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢/ ٢٧٢؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص ٣٥٦

سليمان المستعين الذي ما برح أن قسم كور الأندلس بين قادة عسكره من البربر[١]، حتى أقطعهم المدن العظيمة، وتقلدوا الأعمال الواسعة[٢]، ثم اتسعت تلك الدويلات وزادت حتى ((صار الملك طوائف في آخرين من أهل الدولة مثل: ابن عباد باشبيلية، وابن الأفطس ببطليوس، وابن ذي النون بطليطلة...))[٣].

وبهذا فإن سليمان المستعين نسف كل ما أقدم عليه وأسسه الخليفة عبد الرحمن الناصر من قبل عندما قضى على الإقطاع وأخضعه لسلطة الدولة، ليعود الإقطاع العسكري يظهر وينمو من جديد كقوة مؤثرة في مجريات الأحداث في الأندلس.

ج- تدهور الطبقة الوسطى

حين وصلت العلاقة مابين الإقطاع والطبقة الوسطى إلى هذا الحد من الوضوح فيمكن أن توصف تلك العلاقة على أنها علاقة عكسية، فبوجود الإقطاع تدهورت الطبقة الوسطى، وإذا نمت الطبقة الوسطى انحسر الإقطاع، ومن البديهي أن يترسخ الإقطاع العسكري بتدهور الطبقة الوسطى،

---

(١) ابن عذارى: المصدر السابق، ٣/ ١١٣- ١١٤؛ سعدون نصر الله: تاريخ العرب، ص ١٦٤

(٢) ابن خلدون: تاريخ، ٤/ ١٨١؛ المقري: نفح الطيب، ١/ ٤٢٩ حصل من جملة جند سليمان وهم من الحسنيين المحسوبين على البربر بموجب هذا الإقطاع وهم علي بن حمود حصل على سبته، والجزيرة الخضراء وطنجة فضلاً عن أصيلا إلى أخيه القاسم بن حمود، وكان نتيجة ذلك أن زحف على ابن حمود وأسقط دولة سليمان المستعين بعد قتله وأسرته انظر: ابن بسام: الذخيرة، ق١/ م١/ ص٣٨؛ المراكشي: المعجب، ص٣٢ .

(٣) المقري: المصدر السابق، ١/ ٤٢٩ .

ويظهر ذلك جلياً بالتدهور الاقتصادي، وتدهور العمران المدني، وأفول نجم الحاضرة قرطبة ومدن الأندلس الأخرى عمرانياً وبشرياً، فبعد أن كانت تلك المدن ترفل بالحركة التجارية الضخمة، تحولت إلى قلاع وحصون، في الوقت الذي عجزت الطبقة الوسطى من مواجهة تسلط قادة العسكر[١]. إن الطبقة الوسطى لم تصل إلى السلطة أو دفة الحكم، وإنما كان دورها مسانداً وداعماً إلى نظم حكم تحمل في طياتها روح الطبقة الوسطى، لذلك كان التوافق هو السمة البارزة لتلك النظم وتلك الطبقة، فكلما حاول أن يدب الضعف في تلك النظم بسبب تسلط القوى الإقطاعية كانت الطبقة الوسطى له بالمرصاد[٢]، لذلك فإن مهمة الطبقة الوسطى هي المحافظة على حكومة مركزية فاعلة[٣]،فإذا أفلت تلك الطبقة بظهور الإقطاع وطغيانه أدى ذلك في النهاية إلى فقدان الحكومة سندها وهي الطبقة الوسطى مما يؤدي بالتالي إلى سقوط الدولة.

صفوة القول أن ظهور الإقطاع من جديد بعد أن قضى عليه الخليفة عبد الرحمن الناصر، وغياب الطبقة الوسطى التي أفل نجمها بظهور الإقطاع، كان من العوامل المهمة التي أدت إلى سقوط الخلافة الأموية في الأندلس، فضلاً عن عوامل أخرى سياسية واقتصادية واجتماعية وعسكرية تضافرت وأدت إلى ذلك السقوط.

---

(١) محمود إسماعيل: سوسيولوجيا، ٢ / ١٩٦ .

(٢) محمود إسماعيل: سيوسيولوجيا، ٢/ ٢٠٠.

(٣) مونتغمري واط: في تاريخ، ص ٩٨.

د- فساد النظم

نجم عن الفتنة في الأندلس انتهاك لنظم الدولة وخططها، وتفشي الفساد فيها، وسيطرة العاطلين والمفسدين من العامة عليها، فمحمد المهدي أعتمد عليهم منذ قيام الثورة على الأسرة العامرية، كما اتخذهم جنداً وبطانة له وساهموا في نجاح الثورة منذ قيامها[١]، وفي عهد الخليفة يحيى بن حمود المعتلي اعتلى منصب الوزارة عدد من الموظفين الصغار مثل الكتاب والوراقين فزادهم ذلك غرورا وفخرا لتقلدهم هذه الخطة ((... والفقيه الأديب أبا عمر بن موسى بن محمد اليماني الوراق صاحب محمد بن عبد الله النبهاني، وولاه - يحيى بن حمود - خطة الوزارة فكادت الجبال تنهد لهذه العظيمة، وجمع مركبها به، وأبدع في الكبر والخنزوانة. وقدم أيضا الى الوزارة محمد بن الفرضي الكاتب، فكان أعدى من الجرب على دولته، وارتقب عقلاء الناس عند ذلك حلول المحنة، فقديما استعاذوا بالله من وزارة السفلة))[٢]، كما لحقت بالوزارة والشرطة وغيرها من المناصب الكبيرة السمعة السيئة، وذلك في عهد الخليفة المستكفي، إذ سمح لأهل قرطبة تقلد ما أرادوا من خطط، وخاطبهم بأن يتسموا بما شاءوا من المناصب، فتسمى بالوزارة أراذل الناس وصغارهم، كما تسلق لهذه الخطط صغار الكتاب والخدمة، وبالنسبة إلى خطة الشرطة العليا فقد تولى أمرها عدد كبير من التجار والعامة، والأدهى من ذلك أن الفقهاء ساهموا في هذه المهازل، كما قام الخليفة المستكفي برفع المشاورين أصحاب

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، ٣/ ٦١.

(٢) ابن بسام: الذخيرة، ق١ / م١ / ص ٤٨٣.

الفتوى إلى خطة الوزارة، أما صغار الطبقة الفقهية ممن يحمل المحابر، ويدرس مسائل الدفاتر فقد رفع منزلتهم إلى منزلة الشورى حتى بلغ عددهم تقريباً أربعين مشاوراً[١].

أما الخليفة هشام المعتد بالله فقد أسند منصب الوزير الأول إلى حكم بن سعيد المعروف بابن القزاز، وبذلك رقاه من مهنته كحائك إلى قمة الوزارة[٢]، وقام هذا الحائك بدوره في تصريف شؤون الدولة، وتوزيع الوزارات بين أمثاله من الحائكين، وأراذل القوم، وقلدهم المناصب الوزارية الرفيعة، وقد وصفوا هؤلاء الوزراء الجدد بأنهم ((أكثرهم صبية أغمار عيارون من نمطه، ممن دينه حث الكاس، وتنضيد الآس، وطبخ الترفاس، والتفكه باعراض الناس، وإن ضج مظلوم سخروا به وحاكوه، فالناس منهم من صاحبهم في بلاء عظيم...))[٣]

إن تدهور الأوضاع العامة جراء الفتنة، وما آلت إليه رسوم الدولة ونظمها من ابتذال وفساد، واضطراب لموازين الأمور عندما غيبت الفتنة المشهورين ورفعت المغمورين[٤]، كان دافعاً للشخصيات المرموقة في المجتمع الأندلسي للاعتزال عن العمل السياسي والإداري، وامتناعهم عن التعاون مع

---

(١) ابن بسام: الذخيرة، ق١/ م١/ ص ٤٣٥ – ٤٣٦.

(٢) المصدر نفسه، ق١/ م١/ ص ٥٢٠.

(٣) المصدر نفسه، ق٣/ م١/ ص ٥٢٣ – ٥٢٤؛ ابن عذارى: البيان المغرب، ٣/ ١٤٨ – ١٤٩.

(٤) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، ص ١٣٧.

الخلفاء في زمن الفتنة، وتزودنا كتب التراجم بعدد من تلك الشخصيات، وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر: أبو القاسم أحمد بن عمر بن عبد الله بن منظور الحضرمي المعروف بابن عصفور، دعاه أهل إشبيلية زمن الفتنة إلى تولي أحكامهم فرفض، فعزم على الخروج من المدينة، حتى سكتوا عنه[١]،

والفقيه أبو المطرف عبد الرحمن بن مروان الأنصاري المعروف بالقنازعي، الذي اختصه الخليفة علي بن حمود للشورى، حتى ينتفع المسلمون بعلمه فبعث له بذلك رسول من عنده، فرفض المنصب وصرف رسول الخليفة على عقبه وانتهره، ولم يخش سطوة الخليفة[٢]، وأبو عبد الله محمد بن عتاب بن محسن الذي دعى إلى تولي القضاء في طليطلة والمرية فاستعفاهما، وكان قبل ذلك دعي مرارا لتولي قضاء قرطبة فرفض[٣]، وأبو الربيع بن أحمد القضاعى وكان في طرطوشة، إذ خاطب أحد وزراء قرطبة في زمن الفتنة عندما قال له الوزير لو كنت عندنا في قرطبة لحصلت على الوزارة فكان جوابه مليئاً بالسخرية من المنصب والتهكم على الخليفة المعتد بالله وأنشد قائلا:

هِبْكَ كما تَدعى وَزيرا ..... وَزيرُ مَنْ أنتَ يا وزيرْ

والله ما للأميرِ مَعنى..... فَكيفَ مَنْ وَزَرَ الأميرْ[٤]

---

(١) ابن بشكوال: الصلة، ت ٥٩، ١/ ٣١.

(٢) ابن بشكوال: الصلة، ت ٦٩٤، ٢/ ٣٢٢-٣٢٣؛ ابن سعيد: المغرب، ت ١١٤، ١/ ١٦٦-١٦٧.

(٣) ابن بشكوال: المصدر السابق، ت١١٩٤، ٢/ ٥٤٤ – ٥٤٦.

(٤) ابن بسام: الذخيرة، ق٣/ م١/ ص ٥١٤؛ ابن سعيد: المصدر السابق، ت ٦١٢،٢/ ٤٢٣-

صفوة القول أن ما لحق برسوم الدولة ونظمها الإدارية من معرة نتيجة تولي مهام تلك الرسوم من قبل أناس غير مؤهلين لشغل تلك المناصب كان بسبب الفتنه، وتولي خلفاء ضعاف شؤون الأندلس مما انعكس بدوره على رسوم الدولة وخططها، وفساد نظمها الإدارية.

رابعا: العوامل العسكرية

أ- غزوات المنصور بن أبي عامر

قاد المنصور بن أبي عامر العديد من الغزوات خلال مدة تسلطه على مقاليد الحكم في الأندلس إذ بلغت **اثنتين وخمسين غزوة**[١]، لم ينكسر في أي منها[٢]، إلا أن هذه الغزوات لم تسفر عن انتشار الإسلام أو زيادة الرقعة الجغرافية للدولة الإسلامية في الأندلس، بل أن المنصور أسرف في تلك الغزوات التي شغلت جل وقته إذ كان ((مواصلاً لغزو الروم مفرطاً في ذلك لا يشغله عنه شيء))[٣]، وكان أبرز ما جنته دولة الإسلام في الأندلس من تلك الغزوات هو كثرة الغنائم والسبي حتى امتلأت الأسواق بالجواري وبنات الأسبان، وما عرف بتجارة الرقيق الأبيض[٤]، وركد سبيل الزواج[١]،

٤٢٤.

(١) الحميدي:جذوة المقتبس، ص ٧٠؛ الضبي:بغية الملتمس، ص ١٠٠؛ المراكشي:المعجب، ص٢٨؛ ابن خلدون: تاريخ، ٤/ ١٧٧. وللتعرف على أسماء تلك الغزوات انظر ملحق(٤ – أ، ب، ج)، ص ٢١٢- ٢١٤.

(٢) ابن خلدون: المصدر السابق الجزء والصفحة.

(٣) المراكشي: المعجب، ص ٢٨.

(٤) محمود إسماعيل: سيوسيولوجيا، ٢/ ١٨٢.

على الرغم من أن المنصور كان بتلك الغزوات قد وصل إلى مناطق لم يصل إليها أحد من الفاتحين من قبل[٢]، ولكن من المرجح أن تلك الغزوات كان من بين ما ترمي إليه هو تأديب النصارى وتحقيق الأمجاد العسكرية، ومحاولة لكسب ود أهل قرطبة[٣].

يتضح مما تقدم - ومن خلال تتبع تلك الغزوات - أن المنصور بن أبي عامر لم يثبت أن استخدم عملية الفتح المستقر وحافظ على ما حصل عليه من أرض النصارى بل على العكس ترك أرض العدو بعد الانتصار، واكتفى بأخذ الغنائم والسبي.

احتاجت غزوات المنصور بن أبي عامر إلى تكاليف باهظة لإعداد الجيش اللازم لها وبذلك فهي أرهقت ميزانية الدولة واستنزفت قدراتها المادية والبشرية، وأنهكت أيضاً المقاتلين، وكانت نتائجها سلبية وربما غير ملموسة على المدى القريب، إذ إنها لم تنه تمرد النصارى إلى الأبد، ولم تضف إلى دولة الإسلام في الأندلس موقعاً ولا ثغراً، وإنما نبهت النصارى وحفزتهم على الاستعداد والتأهب لمراحل قادمة، كما أن تلك الحروب التي قام بها المنصور بن أبي عامر وابنه عبد الملك اتسمت بطابع الإذلال للنصارى واستباحت

(١) الحميدي: جذوة المقتبس، ص٧٠؛ الضبي: بغية الملتمس، ص ١٠٠؛ المراكشي: المصدر السابق، ص ٢٨؛ سعدون نصر الله: تاريخ العرب، ص١٥٣.

(٢) المراكشي: المصدر السابق، ص ٢٨.

(٣) محمود إسماعيل: المرجع السابق، ٢/ ١٨٢.

مدنهم ودمرتها[١]، وأرغم النصارى على نقل التراب على رؤوسهم بعد هدم كنائس بلادهم ذلك التراب الذي بني به جامع قرطبة أيام المنصور بن أبي عامر[٢].

كان للسياسة التي اتبعها المنصور بن أبي عامر المتمثلة بإذلال النصارى خلال غزواته أثر في فتح الباب إلى عقد مقارنة بين هذه الغزوات وغزوات الخليفة عبد الرحمن الناصر إذ على الرغم من المدة الطويلة لحكم الخليفة عبد الرحمن الناصر التي بلغت خمسين سنة وكثرة غزواته التي لم يصل أحد من سلفه لمثلها، لم نلاحظ أي نوع من أنواع الإذلال قام به الخليفة عبد الرحمن الناصر تجاه النصارى بالمقارنة مع المنصور بن أبي عامر الذي حكم مدة اقصر وقام بعدد غزوات أقل إذا ما قورنت بغزوات الخليفة عبد الرحمن الناصر، لذلك فإن سياسة المنصور بن أبي عامر تجاه النصارى كانت لابد من أن تواجه بردود أفعال آنية ومستقبلية، وعلى المدى البعيد إذ صاروا يتحسسون من خلالها من المسلمين جراء ما أصابهم ويعدون العدة للمستقبل. ولكن هناك رواية تبعد تلك السياسة العقيمة، والمتجبرة عن المنصور بن أبي عامر وتصفه بالرجل المصلح، والمعمر لكل بلاد العدو التي غزاها عندما ذكر على لسانه بالقول:((لما افتتحت بلاد الروم ومعاقلهم كنت عمرتها فأمرت بنقل الأقوات اليها من كل مكان وشحنتها بها، حتى عادت في غاية من الإمكان،

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٦٧ .

(٢) المقري: نفح الطيب، ٣ / ٢١٦.

ووصلتها ببلاد المسلمين، وحصنتها غاية التحصين، فاتصلت العمارة))[١].

يفهم من هذا النص أن المنصور بن أبي عامر هو ذلك الرجل المصلح والمعمر لكل بلاد العدو التي غزاها، وأكد ذلك ابن عذارى عندما ذكر من أن المنصور لم يدمر بعض المناطق القريبة من الممالك النصرانية، بل على العكس من ذلك حث على سكناها والاستقرار بها[٢]، وهذا يناقض ما ذكر من قبل من أن المنصور أذل النصارى بغزواته وهدم وخرب مدنهم، وهنا لا يشكك في أي من الروايتين بقدر ما يسلط الضوء على الحقبة التاريخية سبب التناقض، التي سعى فيها المنصور إلى إتباع سياسة التعمير، إذ يبدو أن هذه السياسة جاءت في حقبة تاريخية متأخرة من تسلط المنصور على أمر الأندلس، وذلك من خلال ما ذكره المنصور لحاجبه كوثر الفتى وقد حضرته الوفاة وهو يبكي نَدَماً على السياسة الإصلاحية التي اتبعها، وتمنى لو استطاع تخريب وتدمير بلاد النصارى التي غزاها من أجل إنقاذ بلاد المسلمين من خطر النصارى جيرانهم ((فلو ألهمني الله الى تخريب ما تغلبت عليه وإخلاء ما تملكت وجعلت بين بلاد المسلمين والنصارى مسيرة عشرة أيام...))[٣]، كما أن تلك السياسة لم تدم طويلاً لأن الأسرة العامرية لم تعمر في الهيمنة على حكم الأندلس بعد هذه الغزوات إلا فترة قليلة بلغت ست سنوات.

---

(١) ابن الكردبوس: الاكتفاء، ١/ ٣٨٦.

(٢) البيان المغرب، ٣/ ٧.

(٣) ابن الكردبوس: المصدر السابق، ١/ ٣٨٧.

ب- ضعف الجيش والأسطول

نمى الجيش الأندلسي بشكل ملحوظ حتى تطور في العدة والعدد والكفاءة القتالية بسبب الاهتمام المتزايد من لدن حكام الأندلس الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الخليفة الحكم المستنصر وكان هذا الجيش الضمانة الحقيقية لوحدة البلاد ودرء المخاطر الخارجية.

عندما هيمن المنصور بن أبي عامر على مقاليد الأمور في الأندلس أراد أن يحمي نفسه من معارضيه، فاستقدم أعداداً غفيرة من البربر بزعامة جعفر بن علي بن حمدون، وأغدق عليهم العطاء حتى صاروا طوعاً لإرادته وتحت أمره[١]، وأسماهم جيش الحضرة – العاصمة –، وبذلك أصبح جيش الأندلس مقسم إلى قسمين: جيش الحضرة بقيادة المنصور، والجيش المرابط بالثغور بقيادة القائد غالب الناصري[٢]، وبذلك نصل إلى حقيقة مفادها أن المنصور أول من سعى لتفتيت جيش الأندلس بعد أن كان موحداً خدمة لطموحه الخاص وتلبية لنزعته الذاتية الضيقة المتمثلة في السعي للقضاء على من ينافسه. وبعد أن استقرت الأوضاع في الأندلس إلى المنصور بعد أن قضى على كل منافسيه عمل على الاهتمام بالجيش واتبع سياسة تقوم على أساس تنويع مكونات هذا الجيش من عرب ومرتزقة من بربر أو صقالبة، وكانت كفة البربر هي الأرجح، وكان دافع هذا التنوع هو الخوف والريبة من جعل الجيش من مكون واحد، الأمر الذي يسهل على هذا المكون الخروج على طاعة

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢/ ٢٧٨؛ أحمد مختار العبادي: في التاريخ، ص٤٣٩.

(٢) أحمد مختار العبادي: المرجع السابق، ص ٤٣٩.

المنصور((وتوقع المنصور من أجناده الاتفاق على بعض ما يخل بدولته، إذ كانوا صنفاً واحداً، وتألبهم على معصية أمره، متى أمر بما أحبوا وكرهوا فنظر من ذلك بعين اليقظة، وسول له رأيه أن تكون أجناده قبائل مختلفة وأشتاتا متفرقة: ان هم أحد الطوائف بخروج عن الطاعة، غلبها بسائر الفئات، مع احتياجه الى تقوية عسكره، والزيادة فيه بمن يستطيع على تحلل بلاد العدو وتدويخها متى شاء، فاستجلب من رؤساء البربر وحماتها وأنجادها من بلغه فروسيته وشدته))[١]، ولما كانت جل مكونات هذا الجيش من المرتزقة فمن المؤكد أن يصبح همهم الأول هو مصالحهم الشخصية، ومقدار النفع الذي يحصلون عليه، كما أن هؤلاء ينقصهم الإيمان بما يقاتلون من أجله، وتنقصهم الروح المعنوية واليقين بالحرية الضرورية حتى يصبح الفرد مقاتلاً وطنياً[٢].

تخلى هؤلاء المرتزقة في زمن الفتنة عن الأسرة العامرية ودانوا بطاعة الخليفة الجديد محمد المهدي الذي تخلى عنهم وأظهر لهم العداء[٣]، مما جعلهم يتجهون لمنافسه الرشيد ومن ثم لسليمان المستعين، وأدى ذلك إلى انقسام الجيش على نفسه، فقسم من الجيش ناصر الخليفة المهدي مع أهل قرطبة، وقسم من المرتزقة البربر ناصروا سليمان المستعين، وبذلك تشظى الجيش بين الفرقاء، وظلت كل مدينة لها جيشها الخاص بها الذي ينشأه الحاكم لحمايته وحماية مدينته، كما هو الحال في دانية والجزائر الشرقية عندما عكف مجاهد

(١) ابن بلكين: كتاب التبيان، ص ٣١ .

(٢) سامية مصطفى مسعد: التكوين العنصري، ص ١٣٥.

(٣) ابن خلدون: تاريخ، ٤/ ١٧٩ – ١٨٠.

العامري على تكوين جيش ((فلا يضم من الفرسان إلا الأبطال الشجعان))[١].

أما الأسطول الأندلسي الذي اهتم به حكام الأندلس فقد تطور بشكل ملحوظ، إذ اهتم به الخليفة عبد الرحمن الناصر عندما أنشأ دور لصناعة سفن هذا الأسطول، ويرجع سبب اهتمام الناصر بهذا الجانب إلى رغبته وحرصه على مواجهة غارات النورمان والفاطميين على سواحل الأندلس، وقد نجح في تطبيق تلك السياسة حتى أصبح لهذا الأسطول دور واضح في الشأن السياسي، وقد ازداد عدد قطع الأسطول الأندلسي في عهده فبعد أن كان مئتي قطعة أصبح ثلثمائة قطعة[٢]، ثم تضاعف عدد هذا الأسطول ليصل إلى ستمائة جفن بين غَزْوِي وغيره في عهد الخليفة الحكم المستنصر[٣]، وفي خلافة هشام المؤيد اهتم الحاجب المنصور بن أبي عامر بالأسطول واستخدم عدداً من وحدات ذلك الأسطول في حملاته العسكرية على سواحل قطلونية ومنطقة جليقية سنة ٣٧٤هـ/ ٩٩٧م[٤].

لكن بعد قيام الفتنة وتفتت وحدة الأندلس انتهى ذلك الأسطول وتلك القوة البحرية الموحدة التي طالما حقق بها حكام الأندلس الانتصارات الباهرة، وتصدوا بها للطامعين بالأندلس من خلال حماية سواحل الدولة

(١) ابن بسام: الذخيرة، ق٣/ م١/ ص٢٣.

(٢) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة المرية، ص ٣٧ - ٤٢.

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٤٢.

(٤) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة المرية، ص ٤٨.

كافة، وحل بالقوى البحرية ما حل بالجيش من تمزق، ولما آلت السلطة في الأندلس إلى حكام مغامرين وضعفاء فإنهم لم يستطيعوا أن يعيدوا أمجاد ذلك الأسطول الموحد ويبنوا قوة بحرية تعز الإسلام والمسلمين(١).

بعد سقوط الخلافة الأموية في الأندلس أصبح ذلك الأسطول أرث تتقاسمه دويلات الطوائف فيما بينها، إذ اقتسم ملوك الطوائف في بطليوس، وإشبيلية، والمرية، ودانية، وبلنسية ذلك الأسطول فيما بينهم، وعلى الرغم مما أصاب القوة البحرية في الأندلس من تشظي وانحلال، فقد ظهرت بعض المدن التي شجع حكامها على أن يجعلوا منها مراكز مهمة للبحرية، وقواعد للاسطول الأندلسي، وخير مثال على ذلك هو مدينة المرية التي ظلت تحتل المركز الأول من بين قواعد الأسطول الأندلسي، وخاصة في عهد حاكمها المعتصم بن صمادح الذي أهتم بالأسطول اهتماماً كبيراً(٢). وبذلك فإن هذا الاهتمام بالأسطول الأندلسي وبالقوة البحرية هناك، مهما بلغ من قوة فإنه لايمكن أن يصل إلى حجم القوة التي بلغها الأسطول الأندلسي في بداية عصر الخلافة الأموية في الأندلس لاسيما في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر، وعهد تسلط المنصور بن أبي عامر.

لكن مالبث أسطول المرية أن تعرض إلى الحرق والتدمير على يد معز الدولة بن المعتصم الذي أحرق معظم الأجفان، وذلك عندما تغلب المرابطون على المرية، إذ أمر معز الدولة ((رجاله بنقب السور خارج باب

(١) ارشيبالد. ر. لويس: القوى البحرية، ص ٣١٣.

(٢) السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ٤٨ – ٤٩.

موسى الى دار الصنعة، وركب بمن اختص به في قطعة، وحمل المال والمتاع في ثنتين، وأحرق باقي الأجفان خشية الاتباع؛ فأمن عاديتها...))[١].

نصل في نهاية هذا الفصل إلى أن كل هذه العوامل السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والعسكرية مجتمعة أدت إلى سقوط الخلافة في الأندلس، بل إن تلك العوامل بتفاعلها مع بعضها أدت إلى ذلك السقوط.

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١٩٢.